e-ISSN : 2541-500x

INSANIYAT
Journal of Islam and Humanities

The Characteristics of Ahmad Shawky's "Damascus Tragedy" Poems

Nawawi

Arabic Language and Literature Department, Faculty of Adab and Humanities, Syarif Hidayatullah State Islamic University Jakarta

email: nawawi@uinjkt.ac.id

Abstract

Poetry is the artistic tradition that the arabs have been developing from their pre-Islamic time to the Islamic one throughout their Arabian archipelago. Next, this Arabic poetry has its own social function as a note list (dìwân) for the Arab people. This social function produces the prominent Arabic literati's names, one of which is Ahmad Syauqi Bek bin Ali bin Ahmad Syauqi (b. in Cairo in 1868- d. in Cairo in 1932), a man of letters called the "Prince of the Poets" (amìr al syu'arâ'). One of his well-known Arabic poetries is "Damascus Tragedy" (Nakbah Dimasyqâ) collected in the book of "A'lâm wa Ruwwâd fi al-Adab al-'Arabì" (The Learned People and the Pioneers in the Arabic Letters) authored by Kazhim Chathiyth (1930-2007). By using an analytical descriptive method, this article aims to understand and address the literary elements of Syauqi's thought (fikrah), his emotion ('athìfah), his imagination (khayâl), and his musical poems. This article suggests that Syauqi's poems channels his various overflowing feelings, such as sadness, admiration, love, anger, and nationalism, by using the metaphorical words easy to understand the forms of the "wâfir" (literally, exuberant) and that of the rhythmical Arabic letter of "qâf", a letter that has a strong 'character' in Syauqi's poems.

Keywords: *Syarh al-nash (text commentary), fikrah (thought), `âthifah (feeling), khayâl (imagination), music.*

وكان المنفى قد شارك فى تغيير مساره وآفاقه، ولا شك بأن معاناة هذا النفي تزيده انطلاقا وعمقا فى الشعور الوطني والقومي. وإذا ما أعفي عنه، عاد إلى وطنه وأهله، وقد شهد فى وادي النيل عصرا مليئا بالتقلبات السياسية والثورات الوطنية التى كان لها عميق الأثر فى الحركة الفكرية عامة والأدبية خاصة. ويلتزم بوطنه مصر ويشارك شقيقاتها البلاد العربية فيما ينزل بها من أحداث، ويقع عليها من اعتداءات. وعلى أية حال فقد كان شوقي بعد عودته من المنفى لم يعد إلى القصر الملكي وإنما أخذ اهتمام أحمد شوقي بالأقطار العربية الشقيقة ومعارك شعوبها ضد الاستعمار يزداد شيئا فشيئا حتى رأيناه ينظم فى مثل: «تحية دمشق» و «نكبة

أ. التمهيد

إن أعرق السنن الثقافية عند العرب لسنة الشعر، فما تنكر العرب للشعر يوما قديما وحديثا، أنشدوه سليقة وقالوه صنعة، به عبروا عن أفراحهم فى أيام السعد، وبه ترجموا عن أحزانهم فى أيام النحس،فيقال إنه ديوان العرب، وقد برزت أسماء كثيرة فى عالم الشعر ودَوَّتْ أصداؤها. وكان منهم أحمد شوقى. وكان هذا الرجل من الشعراء الذين كلف بهم المولعون بالأدب، وقد نشأ شوقي فى قصر كبير تابع للحكم العثماني، ونال قدرا بارزا من حدب وعطف الخديوي توفيق، وأصبح شاعر العزيز أو لسان حاله حتى نفى الاحتلال الإنكليزي لمصر هذا الشاعر إلى إسبانيا.

ولادته ممكنة غير ممتنعة، وهذا بدليل ترجمة الشاعر لنفسه بنفسه نشرها على الناس سنة ١٨٩٨ وذكر يومئذ أنه فى سنة الثلاثين . فإذا سلمنا بصحة هذا القول فلا نرى الآن بُدّا من التسليم به، فإن اليقين عندنا أن أحمد شوقى ولد سنة ١٨٦٨ (الشملي، ١٩٨٥م، ص٥٣).

فى مهد من مهاد الترف والثراء ولد أحمد شوقى فكان أول هواء دخل رأتيه هو هواء قصر الخديوي إسماعيل وكان أول لبان رضعه مختلط الأصول والأنساب، فقد كان أبوه يجري فيه الدم العربي والكردي والشركسي وكانت أمه يجري فيها الدم التركي واليوناني، إذ كانت جدته لأمه جارية يونانية الأصل سماها الخديوي إسماعيل «تمزار» (الشملي، ١٩٨٥م، ص ٥٥) وتزوجت هذه الجارية اليونانية من رجل تركي فأنجبت أم شوقي، وأما أبوه وجده لأبيه فشركسيان، ومع ذلك انصهرت كل ذهذه العوامل الوراثية فى بوتقة البيئة العربية التى عاش فيها أحمد شوفي وتلقى ثقافته الأولى (ضيف، ١٩٦١م، ص ١١٠، مندور، ١٩٧٠م، ص ٣٧)

وقد تعلم أحمد شوقي وتلقى علومه فى مكتب الشيخ صالح بحي السيدة زينب،وانتقل الطفل من الكتاب إلى المدرسة الإبتدائية ثم الثانوية أو التجهيزية حيث أنه كان من تلامذتها المتفوقين، وأنه تخرج منها مرتّبا الثاني من بين الفائزين، وهو فى سن الخامسة عشر(الشملي، ١٩٨٥م، ص٥٧). ثم التحق على صغره بمدرسة الحقوق ثم بمدرسة الترجمة فنال فيها الإجازة ثم سافر عام ١٨٨٧ م إلى فرنسة على نفقة الخديوي توفيق الذى كان معجبا بهذا الشاب النجيب، فدرس الحقوق مدة سنتين وتخرج سنة ١٨٨٩ من مدرسة الحقوق (قباش، ١٩٧١، ص ٧٤). وكان شوقي خلال دراسته فى فرنسة وجد فرصا مختلفة، فحاول إجادة اللغة الفرنسية، والاطلاع على آدابها، وغادر شوقي فرنسا يعود إلى مصر سنة ١٨٩٣م (حطيط، ٢٠٠٣م، ص ٣٠٦) ثم عمل بقصر الخديوي توفيق، ثم ابنه عباس. ومن محاسن الصدف أنه تزوج من سيدة ثرية كانت مثلا للزوجة الصالحة وقد رزق منها بابنيه عليّ وحسين وابنته أمينة. ولما خلع الإنجليز وقتئذ عباس، وقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م أشار الإنجليز بنفي شوقي من مصر، فاختار أسبانيا ، وعاش فيها حتى عام ١٩١٨ م كانت تلك الفترة خير أيامه، وشاهد فيها مجد العرب وعظماء الإسلام فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة، وكان لذلك أثر ملموس فى شعره ولم يعد إلا فى سنة ١٩٢٠م (ضيف، ١٩٦١م، ص دمشق» و «ضرب الطليان لبيروت» ومرثيات مختلفة لقادة ومجاهدين وأبطال عرب مثل المجاهد الليبي العربي الرمز عمر المختار وغيره. ويتجلى إيمان شوقي فى هذه القصائد على اختلافها فى الرابطة القومية العربية، فيراها فى وحدة اللغة والثقافة ، والتاريخ، والإحساس المشترك، والأرض، ووحدة المصير. وعند ما حدثت كارثة عظيمة أنزلها الفرنسيون بدمشق يهتز الشاعر لهذا الحدث الإنساني الفاجع، فينشئ قصيدته «نكبة دمشق» يعبر فيها عن شعور متفجع وساخط وناقم، ويقف من هذه المدينة المنكوبة الموقف الوطني أو القومي العربي المتعاطف (حطيط، ٢٠٠٣، ص ٣١١-٣١٢). وهذا البحث يهدف إلى الكشف عن خصائص شعره الفنية: "نكبة دمشق" فى كتاب أعلام ورواد فى الأدب العربي لكاظم حطيط (حطيط، ٢٠٠٣، ص ٣١٢-٣١٦).

ب. المنهج

المنهج يحتوي علي طريقة جمع المواد والبيانات وطريقة تحليل البحث. الطريقة التي أستعملها في جمع مواد هذا البحث وبياناته هي طريقة مكتبية. أما الطريقة التي أستخدمها في تحليل البحث فأعتمد علي منهج وصفي فأقوم بمقاربة تاريخية عند ما عرضت لمولد الشاعر ونشأته ودراسته، وكذلك عند ما وضحت بيئته السياسية والثقافية، ومناسبة النص ، وأسلك مقاربة عروضية وفنية عند ما عرضت لخصائص شعره من فكرة وعاطفة وخيال وموسيقى.وبعد القيام بالتحليل توصلت إلى النتيجة

ج. النتيجة والبحث

مولده ونشأته ودراسته

اختلف الباحثون فى ضبط سنة ولادة أحمد شوقى رغم شهرته، إن الذين ترجموا لهذا الأديب أو أرخوا للأدب العربي لايكادون يتفقون على تاريخ ولادته. فنجد كاظم حطيط يجعل مولده فى سنة ١٨٦٥ (حطيط، ٢٠٠٣م، ص ٣٠٦) . وأما صاحب كتاب تاريخ الشعر العربي الحديث أحمد قبش فيقرر أن مولده كان فى سنة ١٨٦٨ (قباش، ١٩٧١، ص ٧٤). وهذا يؤيده محمد مندور فإنه يرى أنه ولد سنة ١٨٦٨ (مندور، ١٩٧٠م، ص ٣٥). وهناك رأي يقول إنه ولد سنة ١٨٦٩ (ضيف، ١٩٦١م، ص ١١٠) ورأي آخر يذكر أنه ولد سنة ١٨٧٠.وذهب منجي الشملي إلى أنه ولد سنة ١٨٦٨ ورأى أن سبيل الاتفاق فى سنة

والخصامـــا (هيكل، ١٩٨٠م، ص ١٥٦-١٦٠)،

وكان لم يغنّ مواطينه وحدهم أهواءهم وعواطفهم السيايسة، بل إنه يغني الشعوب العربية أهواءها وعواطفها، ومن أبياته الدائرة فى نوادى العرب ومجالسهم قوله:

ونحن فى الشرق والفصحى بنوا رحم ونحن فى الجرح والآلام إخـوان

وقوله:

كلما أنّ بالعـراق جـريـــح لمس الشرق جنبه فى عمانه (ضيف، ١٩٦١م، ص ١١٣)

علاوة على ذلك فقد أحب شوقى مجتمعه، فيقول فى قصيدته يخاطب العمال:

أيها العمال أفنوْا الـ عمر كدّا واكتسابا

واعمروا الأرض فلولا سعيكم أمست يبابا (حطيط، ٢٠٠٣م، ص ١٤٦)

وبمثل هذا الشعر الذى نظمه فى العرب وبما نظمه من سياسيات ووطنيات فى قومه احتل شوقي مكانا مرموقا.

وأما ثقافة أحمد شوقي فقد تعددت مصادرها، ومن الجدير بالذكر أنه أجاد اللغتين العربية والفرنسية، وأحاط بكل من الإنكليزية والإسبانية، واتسعت قراءاته فى التراث العربي، وزاد اهتمامه بصورة خاصة بشعر عدد من الشعراء العباسيين والأندلسيين، واهتم بالأدب الفرنسي وأظهر ميلا خاصا نحو الاتجاه الكلاسيكى فيه، لاسيما فى المجال المسرحي، ودون انصراف عن الاتجاه الرومنتيكي، وتعرف على نواح معينة فى الأدب الإنكليزي.

وكان شوقي فى اللغة العربية بلغ مستوى علمائها حتى يقارن بالمتنبى، وتميز باستيعاب إيحاءات ألفاظها، وموسيقاها، ومختلف دلالاتها (حطيط، ٢٠٠٣م، ص ١٤٦). وقد تلقّن أيضا التركية فى بيته، ولكن أثرها لم يكن واسعا فى فنه سوى بعض أبيات ترجمها منها وأثبتها فى ديوانه. أما فى التيارين العربية والفرنسية فيجريان واضحين فى شعره، وكان للتيار الأول الغلبة، فهو الذى تتدفق فى شعره مياهه أروع ما يكون التدفق وأبهجه وكان أكبر نبع يستقي منه هذا المياه كتاب «الوسيلة الأدبية» للشيخ حسين المرصفى، وعكف على النماذج العباسيةالحية عند أبي نواس والبحتري، وأبي تمام والمتنبي والشريف الرضى وأبي فراس وأمثالهم، وقد أعجب شوقي إعجابا شديدا بالبحتري والمتنبي خاصة، وسرعان ما اهتدى إلى أسلوبه، ولكن فى الوقت نفسه يعبر عن الشاعر وعصره وكل ما (١١١).

يذكر شوقي ضيف أن شوقي عند ما عاش فى القصر أصبح شاعر الخديوي عباس الثانى،يمدحه فى جميع المناسبات ويشيد له بالترك والخلافة العثمانية. وهو فى ذلك يسير سيرة الشعراء القدماء، وإن كان يتأثر بالثقافة الأوربية. وفى هذه الحقبة لم يكن شوقي يعني بالجمهور عناية دقيقةبحكم أسرته الأرستقراطية وبحكم وظيفته الرسمية (ضيف، ١٩٦١م، ص ١١٧).

بيئته السياسية والثقافية

شهد شوقي أنواعا شتى من الأحداث التى مرت بها مصر، فقد عاصر الثورة العرابية ، وشاهد الاحتلال الانجليزي لمصر ثم عاصر الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد، وانضم إليها وآزرها بشعره ، فلما رجع من المنفى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ إلى مصر عاش شوقي رجلا من عامة الشعب، لاموظفا ساميا فى القصر، فحصل له من ذلك نظر جديد إلى السياسة والمجتمع. ويتقدم الزمن فيشهد شوقي استقلال مصر سنة ١٩٢٢، ويشهد صدور الدستور فيها سنة ١٩٢٣ وصدور قانون الانتخابات فى السنة نفسها، ويشهد قيام البرلمان سنة ١٩٢٤ ويشهد احتضار الخلافة العثمانية ثم نهايتها على يد مصطفى كامل سنة ١٩٢٤(الشملي، ١٩٨٥م، ص ٦٨)

فلذلك، كان شوقي تغنى على أوتار شتى من قيثارته،ومن قصائده ما قاله فى وصف وطنية مصطفى كامل وأثره فى مصر وفى جيله وفى القضية الوطنية عامة، حيث قال قصيدة، ربما كانت أحسن ما قيل حتى اليوم فى مصطفى كامل وفى جهاده، وهى من أروع الشعر العربي الحديث، قيلت فى سنة ١٩٢٤، بعد أن عاد شوقى من منفاه، ورأى أن الدنيا قد تغيرت، وسُدّت دونه أبواب القصر، والثورة المصرية قد تأجج سعيرها، واشتد لظاها، وهبت مصر عن بكرة أبيها تدعو إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام، مطلعها:

شهيد الحق قم تره يتيما بأرض ضُيِّعت فيها اليتامى (الدسوقي، ١٩٥٠م، ص ١٠١)

أضف إلى ذلك أنه ينشد قصيدة بمناسبة ذكرى مصطفى كامل يخاطب فيها رجال الأحزاب المتنازعين:

إلام الخلف بينكم إلام وهذى الضجة الكبرى علا ما

وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة

(حطيط، ٢٠٠٣م، ص ٣١٦-٣١٧).

خصائص النص: نكبة دمشق

١. الفكرة والشرح للنص

يحوي هذا النص عددا من الأفكار، وفيما يلي الفكرة، والنص، والشرح (حطيط، ٢٠٠٣م، ص ٣١٦-٣١٧):

أ) التجاوب والتعبير عن مشاعر الحزن الشديد تجاه دمشق ووصف فظاعة النكبة (البيتان ١ - ٢)

يستهل الشاعر متأثرا بما أحدثه العدوان الفرنسي فى دمشق، ويقف من هذه المدينة العربية المنكوبة الموقف الوطني أو القومي العربي المتعاطف، والنبيل، وذلك بما هو يظهره من تأثر وتوجع، فيقول السلام لأهلها ودموعه منهمرة، ثم يصف بأن النكبة التى حلت بدمشق شديدة وشنيعة.

سلام من صبا بردى أرقودمع لا يكفكف يادمشق

أحييك أيتها المدينة تحية صادقة وأسلم عليك

سلاما ألين من ريح الشمال فى بردى وعيني تذرف الدموع التي لا تنقطع.

ففى هذه الحالة تفاعل قلب و قلم أحمد شوقى حزناً لهذه الكارثة والنكبة التى حلت بدمشق، وكتب قصيدته الخالدة: « نكبة دمشق» وقلبه يعتصر ألماً وحزناً. وقد استهل الشاعر هذه القصيدة بتحية صادقة وسلام ألين من نسيم ريح الشمال فى نهر بردى ومعه دموع عينه منهمرة.

ومعذرة اليراعة والقوافجلال الرزء عن وصف يدق

ما أفدح ما أصابك من محن حتى لايستطيع القلم أن يعبر عنها ولايقدر الشعرأن يصورها.

لقد حل بدمشق على يد الانتداب الفرنسي من قتل وخراب، فيخيل الشاعر أن المستعمرين قتلوا أهلها، ودمروا بيوتها، وأفسدوا أرضها، وهذه من كبرى المصيبات الإنسانية. وما أشد هذه النكبة!

ب) تباين الموقف: الحزن والفخر بإنشاد فتيان دمشق لشعره (الأبيات ٣ - ١١)

ويقارن الشاعر هنا بين صورتين متناقضتين، صورة جميلة بهيجة في الذاكرة، وصورة واقعية مؤلمة حزينة. ويشعر بالفخربأن الناس كلهم وخاصة فتيانها يرددون وينشدون قصائده.

يريد من معان ، وأفكار، وهو أسلوب يقوم على الجزالة والرصانة والمتانة والقوة (ضيف، ١٩٦١م، ص ١١٤). فوردت الشهادات فى شأنه وقيمة شعره كثيرة غزيرة، وقد أجمع نقاد الأدب -قديما وحديثا- على أنه أمير الشعراء. فلنسمع ما قاله حافظ إبراهيم فى حفل تكريم عظيم أقيم له فى سنة ١٩٢٧ :

أمير القوافي قد أتيت مبايعا # وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

اشتركت فى هذا الحفل الحكومة المصرية والبلاد العربية، إذ قدمت منها وفود مختلفة تمجّد شاعر مصر وتشيد بعبقريته ونبوغه. وقد وضع الشعراء فى هذا الحفل على مفرقه تاج إمارة الشعر لافى مصر وحدها بل فى سائر الأقطار العربية (ضيف، ١٩٦١م، ص ١١٤).

وقد حظي شوقي بمؤلفاته العظيمة بتكريم عظيم فى حياته، فكان جليل المقام يحظى بالتقدير الاجتماعى والاحترام العام. ولم تقف شهرته عن حدود وطنه، بل كان معروفا فى الأوساط الأدبية، وكان هو شاعر الأمة العربية بحق.وبعد حياة حافلة بالجهاد فى ميدان الشعر والأدب انتقل شوقي إلى جوار ربه فى ليلة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ بقصره المعروف باسم «كرامة بن هانيء» على ضفاف النيل بالجيزة، وهو فى الرابعة والستين من عمره (مندور، ١٩٧٠م، ص ٣٦)

مناسبة النص

كان الشعب السوري يعاني مأساة بلاده تحت الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٥ فكانت طلائع الثورة السورية الكبرى تتقدم وتصل فى مسيرتها إلى دمشق، وتثور وتحاصر الجيش الفرنسي المحتل، ويشعر المندوب السامي القائد الفرنسي ساراي بخطورة ما آل إليه وضع جيشه فيدعو مستشاريه إلى إجتماع عاجل، ويصدر على أثره فى ١٥ تشرين الأول ١٩٢٥ قرارا بضرب مدينة دمشق. فما كان الفرنسيون بعد هذا القرار إلا أن ضربوا دمشق وسكانها المدنيين بالقنابل والديناميت والمدافع، فسشيع فى المدينة العربية العريقة القتل والدمار. فكانت نكبة شاملة ومصيبة وكارثة. فيهتز لهذا الحدث الفاجع الشعب العربي فى مصر كما فى غير مصر. ويقام فى قانون الأول سنة ١٩٢٦ احتفال فى حديقة الأزبكية فى القاهرة لمناصرة سورية. ويدعى الشاعر أحمد شوقي للمشاركة فى هذا الاحتفال، فينشئ قصيدته: «نكبة دمشق»

حسان ذوو غايات عالية وأسهم عظيمة فى فضائل الأعمال، وهم فيها سباقون.

لما كان الشاعر يزور سوريا التف حوله شباب سوريون نبلاء، شرفاء، حسان من ذوي النسب والحسب، وكان لهم غايات عالية، وأهداف نبيلة، وهم سباقون في الأعمال الفضيلة.

على لهواتهم شعراء لسنوفى أعطافهم خطباء شدق

ومن هؤلاء الذين قابلتهم والتفوا حولي شعراء بلغاء وفي حواليهم خطباء مفوهون.

وكان فى سوريا شعراء بلغاء وكان شوقي فى زيارته قابلهم وكانوا يلتفون حوله، كما كان هو فيها قابل خطباء فصحاء مفوهين.

رواة قصائدى فاعجب لشعرٍ بكل محلة يرويه خلق

إن الناس كلهم يرددون وينشدون قصائدي، والشعر رائع معجب فكانوا يتناقلونه فى كل مكان.

والشعر الذى ينشده الشاعر فى كل مكان جميل ورائع كله، وما أعجبه! والناس يتناقلون شعره ويرددونه فى كل محلة وفى كل مكان ، ويحاولون إظهار جماله.

غمزتُ إبائَهم حتى تلظّتْأنوف الأسد واضطرم المدق

أشرت إلى عزتهم وأنفتهم بشعري، حتى التهبت حمية شجعانهم، واشتد غضبهم وغيظهم.

فكان السوريون استجابوا لتلك الاستشارة، وقاموا متأهبين للقيام بواجباتهم، واستعدوا لمواجهة المستعمرين وكفاحهم ملتهبين كالشهب، وقد أخذتهم الحمية، واشتعلت أنفتهم في نفوسهم.

وضج من الشكيمة كل حُرأبيّ من أميّةَ فيه عتق

وصاح للإباءة من كل ظلمٍ واستبدادٍ كلُّ حر ذى عز وأنفة ينتميي إلى بني أمية، هم الذين يتصفون بالعز والكرم.

وكان هؤلاء السوريون يتصفون بالعز والكرم وخلوص الأصل فى الانتماء إلى بنى أمية والانتساب إليهم. ولذلك هم يأبون من كل ظلم، ويضجون من كل استبداد، ويثورون على كل محتل، ويواجهون كل معتد، وهذه هي خصال الأحرار وسماتهم، وقد خلد الأمويون لنا تاريخاً مجيداً، وآثاراً خالدة، وحضارة عريقة. وهم فخورون بهذا الانتساب وذاك الانتماء.

وذكرى عن خواطرها لقلبإليك تلفت أبداً وخفق

وكلما مرت ببالي الذكريات فيك يادمشق فلا يزال يلتفت إليك دائما ويخفق

كانت دمشق تركت وراء الشاعر الذكريات الجميلة ، الرائعة ولاتزال تهيج قلبه ، فكل ما وجده ويراه حواليه مبهج ومنجذب، وهذا الذى مما يجعله ملتفتا إليها، ويؤدي إلى اضطرابه إذا أصابتها مصيبة أو حلتها كارثة.

وبى مما رمتك به الليالجراحات لها فى القلب عمق

وقد طرحتك الليالي بالخطب الفادح حتى يجرح قلبي جرحا عميقا

واليوم يومان، يوم فرح ويوم حزن، ودمشق جميل كلها حتى رماها الزمان بمصيبة كبرى وضربتها الليالي ضربة إنسانية مؤلمة تجرح قلوب السوريين عامة، وقلب الشاعر خاصة.

دخلتك والأصيل له ائتلافووجهك ضاحك البسمات طلق

قد زرتكقبل هذه المصيبة، وقت الأصيل ، وكان ذلك الوقت متألقاً لامعاً ومشرقا، وكان وجهك جميلا ضاحكاً مستبشرا.

يتذكر الشاعر أيامه الجميلة التي قضاها في سوريا في زيارته قبل هذه المصيبة، فقد كانت الزيارة وقت الأصيل (الوقت ما بين العصر والمغرب). وكان ذلك الوقت متألقاً ومشرقا، ووجه دمشق ضاحكاً مستبشراً، فكان كل ما يراه جميلا وممتعا ومحببا ، ويرى الشاعر ويقارن هنا بين صورتين متناقضتين، صورة جميلة بهيجة في الذاكرة، وصورة واقعية مؤلمة حزينة.

وتحت جناتك الأنهار تجريوملء رباك أوراق وورق

لما زرتك (يا دمشق) وجدت الأنهار تجري تحت حديقاتك، وفي ربوتك تنبت الأشجار مورقة تعم المكان، والحمائم تغني على أغصانها.

لما دخل الشاعر سوريا في زيارته الأولى وجد فيها الأنهارتجري في كل مكان، ولا سيما تحت حديقاتها، وكانت فيما ارتفع من أرضها الخصبة وما انخفض منها الأشجار تعمه وهى مورقة ، أما الحمام المغرد فإنه يغني على أغصانها. وقد اقتبس الشاعر من قوله تعالى: "جنات تجري من تحتها الأنهار".

وحولى فتيه غرٌّ صباحلهم فى الفضل غايات وسبق

وكان حولي شباب سوريون فضلاء شرفاء

يذكر الشاعر أن حضارة دمشق كانت في تقدم ومجد وخاصة في عصر بني أمية، وكان لها دور عظيم في خدمة الإسلام، كما كان لها لقدمها وعراقتها ومجدها فضل ونصيب لاينكر في تقدم الحضارة في العالم ولا سيما في تأسيس الحضارة الأندلسية.

ألستِ دمشق للإسلام ظئراومرضعة الأبوة لا تعق

يا دمشق! ألم تكوني مرضعة للإسلام، وأنت قد لعبت دورا كبيرا في خدمة الأسلام.

وكان الشاعر يخاطب دمشق سائلا: ألست للإسلام ظئرا أي مرضعة له، يعني هذا الاستفهام للتقرير والتذكير بأن لدمشق فضلا كبيرا في خدمة الإسلام ودورا عظيما لاينكره أحد.

(صلاح الدين) تاجك لم يجملولم يوسم بأزين منه فرق

مثل صلاح الدين هو تاجك، ليس هناك رأس يلبس تاجا أجمل وأزين منه.

يذكر الشاعر معلماً من المعالم التاريخية في دمشق، هو صلاح الدين أي قبره، فإن قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي أجمل التيجان يزين دمشق، وهو تاج ليس هناك أيّ تاج أجمل منه. ومن حق دمشق أن تتفاخر به.

وكل حضارة في الأرض طالتلها من سَرحك العلْوىّ عِرق

إن كل حضارة ظهرت على وجه الأرض واتسعت، وطالت أمجادها، ليست إلا ولك فيها من نصيب لقدم وعراقة حضارتك.

وكل حضارة أينما كانت على وجه الأرض، وظهرت، واتسعت وطالت أمجادها، هي لاتخلو من فضل حضارة دمشق ودورها لقدمها وعراقتها.

سماؤك من حُلى الماضى كتابٌوأرضُك من حُلى التاريخ رَق

إن سماءك كتاب مفتوح يتصور فيه تقدم حضارتك الماضية، أما أرضك فهي جلد رقيق يسجل فيه آثار التاريخ وأمجاده.

يصور الشاعر حالة دمشق الماضية بأن سماءها قد زينت بأنواع الحلى، وهي كتاب مفتوح يصور الأمجاد الحضارية والثقافية الماضية، أما أرضها فهي مزينة بتقدم الآثار التاريخية وأمجادها. يعني أن دمشق في ماضيها ذات أمجاد الحضارات والثقافاتا.

ج) تأثر عميق بالحدث الجلل الطارئ على دمشق (الأبيات ١٢- ١٥)

وكانت النكبة التى أحدثها العدوان الفرنسي في دمشق عظيمة تُلفت نظر الأمة العربية إليها، وكان اهتمام شوقي بها عظيما، فتأثر قلبه تأثرا عميقا حتى يشعر بالوجع الشديد والحزن والأسى فأظهر ما يضمره من حقد وغيظ وغل. لذلك يدعو الله أن يلعن تلك الأخبار المؤلمة بقوله: «لحاها الله أنباء».

لحاها الله أنباء توالتعلى سمع الولى بما يشق

أزال الله تلك الأنباء التي وصلت متوالية إلى المحبين لدمشق، وقد شقت عليهم وصعب احتمالها لقسوتها وشدتها.

يدعو الشاعر أن يلعن الله تلك الأنباء القاسية، وقد وصلت هذه الأخبار إلى مسمعه ومسامع المحبين لدمشق وهى متوالية ومتتابعة، ما أقساها على المحبين لدمشق! وما أشدها عليهم! لشدة فظاعتها وهول مصيبتها فشقت عليهم جميعاً.

يفصِّلها إلى الدنيا بريدويُجمِلها إلى الآفاق برق

إن الأخبار عن النكبة تصل إلينا مفصلة عن طريق البريد، وتصل إلينا مجملة عن طريق البرقيات.

هذه الأخبار السيئة تصل إلينا مجملة ومفصلة وما ينقل عن طريق الإرسال البرقي فهو خبر مجمل موجز يأتي سريعا وتأتي تفاصيلها فيما بعد عن طريق البريد.

تكاد لروعة الأحداث فيهاتخال من الخرافة وهى صدق

والأخبار التى تصيب دمشق هى حادثة واقعة شنيعة ومروعة حتى يظن العالم أنها خيالية.

إن هذه الأنباء لهولها لايكاد العالم يصدقها بل يظنها خيالية لفظاعتها وإفزاعها وشدة شناعتها، وهى أنباء صادقة مؤلمة تجرح الشعب العربي.

وقيل معالم التاريخ دكتوقيل أصابها تلف وحرق بلغني أن الآثار التاريخية في خراب وهلاك، قد هدمها الجيش الفرنسي.

سمع الشاعر من الأخبار أن معالم دمشق الحضارية الإنسانية أو ما يتصل بها من آثار القدماء قد هدمها المستعمر الفرنسي، منها ما أتلفه ومنها ما أحرقه .

د) دور دمشق في خدمة الإسلام وتقدم الحضارة في العالم (الأبيات ١٦- ٢١)

يشير الشاعر إلى أنه قد زار هذه الجنان، فيتسأل حزينا عن غرفها، هل لاتزال منضدات أى متسعات ومنسقات، وهل لاتزال حالتها جميلة ونضيرة ومرتبة ومتسقة مثل ما قد شاهده عند زيارته لأول مرة ؟

وأين دُمى المقاصِر من حِجال مُهتكة وأستارٍ تُشق

وأين الدمى الجميلة فى حجر العروس التى قد تمزقت أخدارها واخترقت أستارها؟

وقد تفاعل الشاعر وتأثر بهذا الحدث الجلل، وتألم ويتخيل نساءها كيف يهجرن حجرهن وصورها المنقشة هائمات تائهات وأستارهن مخترقة.

بَرزْن، وفى نواحى الأيك ناروخلف الأيك أفراخ تزق

وقد خرجت هؤلاء النساء وكانت فى أكناف الحديقة وحواليها نار، وفى خلفها أفراخ يطعمها الطائر

إذا رُمن السلامةَ من طريقأتت من دونه للموت طرق

وإذا طلبن السلامة ورغبن فيها فالطريقة التى وجدنها أمامهن هى طريقة تؤدي إلى الموت.

بليل للقذائف والمناياوراء سمائه خطف وصعق

إن دمشق قد رميت بالقذائف فى أثناء الليل، وكان ضوءها الذى ينير السماء و صوتها الشديد قد إختطف الأرواح بسرعة.

إذا عصف الحديد احمر أفقعلى جنباته واسود أفق

إن شدة القصف بالمدافع الثقيلة المدمرة أو المحرقة تجعل الأفق محمرا على جوانبه لالتهاب القصف، وتجعله مسودا لكثافة الدخان يحيطه.

سلى من راع غِيدَك بعد وهنأبين فؤاده والصخر فرق

يا دمشق !هلا سألت من الذى أخاف حسانك أو أفزع النساء الجميلات فيك بعد تعب او بعد نصف الليل؟ وهلا سألت هل هناك فرق بين قلوب المستعمر والصخر الصلد؟

يصور الشاعر أنه لا فرق بين قلوب المستعمرين وبين الصخر، يعني أنه يقرر أن قلوبهم أشد قساوة، وأكثر حقداً.

و) الحنكة وتجرمة القائد الفرنسي على مدينة دمشق (الأبيات ٣٠ - ٣٤)

وقد ذاق الفرنسيون مر الاستعمار فثاروا لذلك ضد المستعمرين الظالمين لكن القائد الفرنسي قام بالعدوان بنيتِ الدولة الكبرى ومُلكاغبارُ حضارتيه لا يُشق

كنتِ مركزا وعاصمة لدولة الخلافة الأموية العربية ، وإن ملككِ فائز ومتفوق فى تأسيس الحضارتين فى دمشق والأندلس.

إن دمشق كانت مركزاً وعاصمة وحاضرة للدولة الإسلامية والعربية. وامتد مجد بني أمية وسيطرتهم ودولتهم من دمشق إلى الأندلس، وقد نجحت وتفوقت هذه الدولة فى تأسيس الحضارتين في دمشق والأندلس. تدفقت حضارة دمشق العريقة منطلقة زاهية، وقد تطورت حضارة الأندلس ووصلت إلى ذروتها فى عهد الخلافة الأموية.

له بالشام أعلامٌ وعُرسبشائره بأندلس تدق

وكان لهذا الملك رايات النصر وعلاماته بالشام، إذا أقيمت فى الشام وليمة واحتفالة بالنصر فرحا وإعلانا عنها فإن بشائرها وأفراحها تصل إلى أندلس.

وإذا رفعت دولة الخلافة الأموية العربية رايات النصر ، وأعلنت الاحتفالات بالنصر، فأقيمت وليمة واحتفالة عظيمة في دمشق ففى هذه الحالة تصل بشائرها وأفراحها إلى الأندلس.

ه) تعمق الإحساس والتفاعل ونفاذه إلى واقع دمشق (الأبيات ٢٢ - ٢٩)

حدث فى دمشق نكبة شاملة تجعل نفس الشاعر متفاعلا ومتأثرا ومتألما، فيتصور ما حملته الأنباء من الحدث الجلل والمعانات المأسوية الدامية، ويتخيل من بعد صورة مخيفة مرعبة مفزعة.

رِباعُ الخلدِ ويحَك ، ما دهاهاأحقٌ أنها درست أحق ؟

ويحك ! ماذا أصاب هذه المواطن الخالدة (دمشق) ؟ أصحيح أنها انهدمت؟ هل يصدق أنها سادها دمار وخراب؟

لما حدث فى دمشق نكبة شاملة، فيتساءل الشاعر متوجعا ويظهر الشفقة بقوله ويحك، هل أصاب دمشق بداهية، وكانت هى مساكن الخلود وجنة الدنيا، وهل صحيح أنها انهدمت؟

وهل غُرَف الجنان منضداتوهل لنعيمهن كأمس نَسق

هل الغرف فى حديقاتها لاتزال متسعة، وهل هى فى حسن حالتها واتساقها كما قد شاهده؟

أن كانوا ثائرين ومضحين نفسهم ؟

وقد بذل أبناء دمشق نفوسهم لأجل الحرية وقد استشهد كثير منهم ليبقى الشعب السوري ويعيش عزيزا حرا أبيا.وقد حقق الشعوب (كمثل فرنسا) حريتهم بتضحية كبيرة. وتم التحرير على أسنة الرماح والأسلحة في أيام ثورتهم، فكيف يستعبدون بعد أن كانوا ثائرين ومضحين نفسهم ؟

ز) موقفه القومي ونصحه (الأبيات ٤١ – ٣٥)

يتوجه الشاعر إلى أبناء سوريا توجها قوميا صادقا مخلصا، يؤكد إيمانه جليا بالرابطة القومية بين أبناء الأمة العربية بأن لهم لغة واحدة فصيحة، وينصحهم أن يجاهدوا بكل طاقاتهم وإمكانياتهم، أن ينتظموا صفا واحدا لدفع الأذى والعدوان، وأن ينصرفوا عن كل ما يفرقهم ويفتت شملهم وويضعفهم فى وجه أعدائهم.

بنى (سورية) اطّرحوا الأمانيوألقوا عنكم الأحلام ألقوا

يا أبناء سورية! اتركوا أمانيكم بعيدة ودعوا أحلامكم فلن تأتي الحرية بالتمني.

فمن خِدعِ السياسةِ أن تُغَرُّوابألقاب الإمارة وهى رِق

إن السياسة قد تخدعكم بتقليد المناصب السياسية كمنصب الإمارة، وهذه خدعة سياسية تستعبدكم.

فتوق الملك تحدث ثم تمضىولا يمضى لمختلفين فتق

قد تحدث الاختلافات فى الملك أحينا ثم تزول، لكن أثر الإنشقاق سيبقى بين المختلفين ولن يغيب مع مرور الأيام.

وكم صيد بدا لك من ذليلكما مالت من المصلوب عنق

كم متكبر مزهو بنفسه وهو ذليل كالمصلوب الذي نراه يرفع رأسه وقد مالت عنقه بعد مفارقته الحياة

نصحت ونحن مختلفون داراولكن كلنا فى الهم شرق

يا أبناء سورية! إقترحت عليكم الرأي وقدمت لكم النصيحة رغم تباعد الأقطار واختلافها، فإننا كلنا أبناء الشعب العربي، فأشارككم فى الأحزان.

ويجمعنا إذا اختلفت بلادبيان غير مختلف ونطق

على الرغم من أن بلادنا مختلفة ومتباعدة، فإننا يجمعنا لغة واحدة وهى اللغة العربية الفصيحة.

الاستعماري وخرب دمشق ودمرها بدون رحمة وشفقة، فهذا جرمه العظيم قام به وذنبه الكبير. وكان للشاعر حنكة وبصر بأمر الاستعمار، فيذكر الشعب السوري أن هؤلاء المستعمرين قساة وإن أظهروا اللين.

وللمستعمرين وإن ألانواقلوب كالحجارة لا ترق

إن قلوب المستعمرين الفرنسيين قاسية كالحجارة رغم أنهم يظهرون لينة

إن المستعمرين الفرنسيين الذين استعمروا دمشق، قد أفسدوا أرضها وقتلوا رجالها ونساءها، ودمروا بيوتها. فهم قساة وإن أظهروا اللينة واللطافة، وقلوبهم متحجرة وإن أبانوا عطفهم.

رماك بطيشه ورمى فرنساأخو حرب به صلف وحمق

يا دمشق! قد رماك القائد الفرنسى لخفة عقله فإن رميه هو فى الحقيقة رمي فرنسا نفسها بالسوء والصلف وقذفها بالحمق.

يذكر الشاعر أن ما فعله القائد الفرنسي الطائش من رمي دمشق أوضربها لنزقه وخفة عقله فإن رميه هو فى الحقيقة رمي فرنسا نفسها بالسوء والصلف وقذفها بالحمق والتكبر.

إذا ما جاءه طلاب حقيقول عصابة خرجوا وشقوا

والقائد الفرنسى إذا جاءه الذين يطلبون منه حقوقهم فيقول: هؤلا جماعة متمردة يخرجون على أوامره، ويعاندونه.

كان القائد الفرنسى إذا جاءه المجاهدون يطلبون منه حقوقهم والحرية والاستقلال فيقول: هؤلاء عصابة أو جماعة متمردة يخرجون على أوامره، ويجاوزون المسموح به ويعاندونه. ويعلنون العصيان.

دم الثوار تعرفه فرنساوتعلم أنه نور وحق

إن فرنسا تعلم أن دماء الثائرين دماء نور وحق.

كانت فرنسا احتلتها المستعمرون فثارت ضدهم، تطالب بحريتها واستقلالها، فهى ، إذا، تعلم تمام المعرفة أن دماء الثائرين هي دماء نور وحق، لكن القائد الفرنسي أصم سمعه عن أصوات السوريين الطالبين بحرية بلادهم واستقلالها.

وحررت الشعوب على قناهافكيف على قناها تسترق

وقد حققت الشعوب حريتهم بتضحية كبيرة. وتم التحرير على أسنة الرماح والأسلحة. فكيف يستعبدون بعد

نلاحظ أن الشاعر قد رتب الأفكار في داخل النص وقد طابقت أفكاره الواقع الشعوري لدى الأمة العربية والواقع الحسي للنكبة فكانت أفكاراً واضحة لاغموض فيها يرجع ذلك إلى الموهبة التي تميّز بها شوقي. ونجد الشاعر يصدر في هذه القصيدة عن شعور متفجع وساخط وناقم لما حل بدمشق على يد الانتداب الفرنسي من قتل وخراب وتشريد، فيدعو إلى إخوانه العرب السوريين إلى استرداد حريتهم واستقلالهم من قبضة الاستعمار الفرنسي عن طريق النضال الوطني، وإلى تقرير مصيرهم ليعيشوا أحرارا وأعزاء وكرماء كما كانوا عليه وخصوصا في زمن الحكم الأموي العربي .

ومصدر الفكرة هنا -أولا- قوة الشعور القومي لدى الشاعر، الشعور الذى يجمع بينه وبين العاصمة العربية المنكوبة بل بين المصريين والسوريين العرب، والذى يجعل أبناء الأمة العربية يشعرون أنهم أمة واحدة ذات لغة واحدة وثقافة واحدة وإحساس مشترك، و- ثانيا- تجربته بعد زيارة دمشق، زيارته قبل نكبة دمشق وبعدها. فشوقي يجد صورتين متناقضين: هما صورة دمشق الجميلة والبهيجة، وصورتها الواقعية المؤلمة والحزينة، و- ثالثا- قوة إرادته ليستطيع الشعب السوري أن يعيش حرا عزيزا أبيا، و-رابعا- موهبته الشعرية.

٢. العاطفةوالخيال والموسيقى

أحلى ما في قصيدة «نكبة دمشق» لأحمد شوقي العاطفة الصادقة التى أشعرتنا منذ بداية القصيدة حتى نهايتها وهى عاطفة الشاعر الإنسانية فهى تمثل عاطفة المواطن الحر الشريف، وهو يرى وطنه محتلا مهانا وهى لذلك عاطفة قومية، عاطفة صحيحة وخالدة فالأرض أرض الآباء والأجداد لايتهاون إلا خائن آثم.

وقد بث الشاعر في هذه القصيدة أروع المشاعر والأحاسيس بصدق عميق، فنحس بأن مشاعر الأحزان قد تسربت إلى نفس شوقي كما تجلى لنا في تحيته لدمشق ، ودمعه الذي ينهمر ولا ينقطع، وفى تقصير النثر والشعر، واعتذارهما عن التعبير عن جلال النكبة وعظيم المصيبة التى حلت بدمشق، كما نحس فى قوله «ووجهك ضاحك البسمات طلق» وفى قوله «رواة قصائدي ...» إعجاب الشاعر بدمشق : حديقاتها وروابيها الجميلة قبل هذه المصيبة بأن كان وجه دمشق متألقا ومشرقا، فكان كل ما يراه جميلا وممتعا ومحببا، وإعجابه بنفسه بأن كان السوريون وخاصة شبابهم كلهم رواة قصائده، رغم أن

وقفتم بين موت أو حياةفإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا

يا أبناء سورية! أنتم أمام الأمرين: الموت والحياة، وإذا أردتم أن تعيشوا فى حرية وعزة ونعيم فجاهدوا بكل طاقاتكم وإمكانياتكم، وإلا تعيشوا في ذلة واستعباد.

ح) معاني الحرية والاستقلال وأهميتها (الأبيا ت – ٤٢ ٤٧)

يذكر الشاعر مدى أهمية الحرية والاستقلال، وهى لاتأتي وحدها، إنما هى لابد أن تؤخذ بالغلبة، فيجب على الأوطان أن يدافعوا عنها.

وللأوطان فى دم كل حريد سلفت ودين مستحق

إن للأحرار نعمة سابقة وعليهم دَين لابد أن يدفعوه.

يذكر الشاعر أن للأوطان نعمة سابقة ودين ،وهو دم الشهداء، فيجب على كل حر من أبناء الأوطان فى كل زمان أن يجزي النعمة التى نالها من وطنه ويرد الدين الذى أخذه منه عند شدة ونكبة بالدفاع عنه وحمايته.

ومن يسقى ويشرب بالمنايإذا الأحرار لم يسقوا ويُشقوا

من الذى يستعد للموت والاستشهاد إذا لم يكن للأفراد الأحراراً وعي لتحمل مسئوليتهم تجاه وطنهم والدفاع عنه.

ولا يبنى الممالك كالضحاياولا يدنى الحقوق ولا يحق

إن الأوطان والدول لاتبنى بدون تضحية، ولا يعطى أي حق من الحقوق بل هو ينتزع.

ففى القتلى لأجيال حياةوفى الاسرى فدى لهم وعتق

وإن من يقتل أو يستشهد فهو بدمه يهب حياة جديدة للأجيال الآتية وأما من يؤسر فهو يفتدى تلك الأجيال ويسلمها من قبضة المستعمرين.

وللحرية الحمراء باببكل يد مضرجة يدق

إن الحرية لاتعطى مجانا ، إنما لها باب قوي، فباب الحرية لايفتح إلا بيد الأحرار المضرجة بالدماء والمناضلة الشديدة.

جزاكم ذو الجلال بنى دمشقوعز الشرق أوله دمشق

لعل الله ذا الجلال يجزيكم يا أبناء دمشق، فإن دمشق هى أصل لعز الشرق.

تراكيب سليمة من العيوب اللغوية وأخطاء الإعراب، فنرى براعته فى استخدامه الألفاظ العادية للتعبير عن أفكاره ومشاعره، فقد أكسب هذه الألفاظ طاقة شعرية دون الخروج عن الفصاحة، كما نرى أنه فى هذه القصيدة لايخلو من استخدام الوسيلة الفنية التصويرية فى التعبير عن ما يختلج فى نفسه وما يدور فى المجتمع السوري. هنا نجد الشاعر يتألم ويضيق صدره عند ما وصف آلام الشعب الصوري. وقد صور ذلك الضيق النفسي أدق التصوير فقال: ودمع لايكفكف، عن وصف يدق، لأنه يعاني ما يعانيه الشعب السوري تحت الاحتلال الفرنسي وكانت النكبة عظيمة حتى لايقدر قلم الشاعر ولا الكاتب عن تصويرها. فمن هذه الوسائل الفنية التصويرية: الكناية والاستعارة والتشبيه. أما فى استخدام الكنايات فنجد الشاعر هنا يختار عبارة شائعة، كمثل «دمع لا يكفكف): كناية عن غزارة الدموع المنسكبة على دمشق، و «يفصِّلُها إلى الدنيا بريدٌ ويحملها إلى الآفاق برق» : كناية عن سرعة وصول الأخبار مفصلة ومجملة، و»مضرجة» : كناية عن كثرة الدم وسيلانه»، و «دم الثوار»: كناية عن الشهداء. وفى استخدام الاستعارات نجد منها قوله: «وبى مما رمتك به الليالي»: استعارة مكنية، و « يفصلها إلى الدنيا بريد ...»: استعارة مكنية ، و « لها من سرحك العلوي عرق» : استعارة تصريحية، فكلمة «السرح» مفردها سرحة وهى نوع من الشجر ، والمعنى: التأكيد على قدم حضارة دمشق وعراقتها، و» يشرب بالمنايا»: استعارة مكنية، و «الحرية الحمراءباب»: استعارة مكنية. وفى استخدام التشبيه نجد فى قوله «قلوب كالحجارة لا ترق»: تشبيه مفصل, و قوله «أنه نور وحق»: تشبيه بليغ.

أما من حيث الموسيقى فإن شعرشوقي: «نكبة دمشق» له إيقاع منظم يتكون من الأوزان والقوافي فى نسق معين، وقد التزم الشاعر فى قصيدته هذه بالقواعد العروضية للشعر العربي، فبناها على البجر الوافر، وهو من البحور التى يكثر استعمالها فى الشعر العربي، على وزن: مفاعلتن مفاعلتن فعولن، وقد كان الوزن طيعا للشاعر، وكانت القافية ذات صوت قوي، فلا نجد فيها ضرورات ولا عيوبا مخلة. فقد اختار الشاعر لقصيدته البحر الوافر ليستوعب قضاياه ، وأفكاره ، ومشاعره المختلفة ، وقد طوع تفعيلات هذا البحر بما فيها من زحافات وعلل لما يخدم غرضه الشعري وتجربته الشعورية. وإنالشاعر يستخدم البحر أو الوزن الشعري حسب ما يقتضيه الحال عاطفة الحزن تطغى على كل النص للألم المرير الذي يعتمل صدره. ونحن نلمس حرارة هذه العاطفة وصدقها فى العرض الواقعي الدقيق للنكبة التى أحدثها العدوان الفرنسي، والتى ألفتت نظر الأمة العربية إليها، فى قوله: «ألست دمشق للإسلام ظئرا ومرضعة الأبوة لا تعق» وفى قوله : «رباع الخلد ويحك ، ما دهاها أحق أنها درست أحق؟» وكان اهتمام شوقى بهذه النكبة عظيما وجعلت هذه النكبة نفسه متفاعلا ومتأثرا ومتألما وخاصة هذا الحدث الجلل الذى أصاب نساءها حتى يتسائل ويقول: «وهل غرف الجنان ... وأين دمى المقاصر من حجال ... برزن وفى نواحى الأيك نار ... إذا رمن السلامة من طريق ... سلي من راع غيدك بعد وهن ...»

أضف إلى ذلك أن الشاعر يصب جام غضبه على القائد الفرنسي الذى أصم سمعه عن أصوات السوريين المطالبين بحرية بلادهم واستقلالها مع أن فرنسا تعلم أن دماء الثائرين هي دماء نور وحق. لأنها كانت ثارت ضد المستعمرين، تطالب بحريتها واستقلالها. وتظهر عاطفة الغضب عند وصول الأخبار القاسية إلى مسمعه ومسمع المحبين لدمشق ، وقد شقت عليه وصعب احتمالها لشدة فظاعتها، فيدعو الله أن يلعن تلك الأخبار، حيث يقول: «لحاها الله أنباء توالت ...». كما تظهر عند ما صور الشاعر شدة القصف بالمدافع الثقيلة المحرقة فى قوله: «إذا عصف الحديد احمر أفق ... سلي من راع غيدك بعد وهن أبين فؤاده والصخر فرق، وفى قوله: « وللمستعمرين وإن ألانوا قلوب كالحجارة لا ترق» وفى قوله: «رماك بطيشه ورمى فرنسا أخو حرب به صلف وحمق». وفى نهاية النص أبرز الشاعر عاطفة الحب إلى أبناء سوريا بأن يؤكد إيمانه جليا بالرابطة القومية بين أبناء الأمة العربية بأن لهم لغة واحدة فصيحة رغم تباعد الأقطار واختلافها، فيشاركهم فى الأحزان، وأن ينصح لهم أن يجاهدوا بكل طاقاتهم وإمكانياتهم لكى يعيشوا فى حرية وعزة ونعيم، ولكى لا تعيشوا فى ذلة واستعباد، كما نحس فى قوله: «نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا فى الهم شرق، ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق، وقفتم بين موت أو حياة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا، وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق». فعاطفة الحزن والإعجاب والحب والغضب بسبب هذا المصاب الجلل تكون قوية وصادقة، فهى تخرج من القلب ويصل إلى القلب.

استخدم الشاعر ألفاظا سهلة وبنى من تلك الألفاظ

والقافية، وأداة من أدوات التأثير فى القارئ. ولعل استخدام رويّ القاف وتوالي الحروف أعطى النص صدى موسيقيّاً يطرب الأذن بانسجامه مع تفعيلات البحر الوافر الذي أكسبه إيقاعا صوتيا جميلا، وقيمة فى إبراز الانفعالات والعواطف وفى تقوية المعنى.

وهكذا فإنّ موسيقا هذه القصيدة قد حققت فيها إيقاعاً شعرياً فنّياً أكسبها جمالية وجعلها وحدة متكاملة، تواشجت وتعانقت مع المشاعر والمعنى والصورة والألفاظ وأساليب الصياغة الأخرى.

د. الخلاصة

هذا البحث تناول الشعر الوطني عند الشوقي المعنوان : نكبة دمشق. عرضت فيه لخصائص شعره من فكرة وعاطفة وخيال وموسيقى.وفى نهاية المطاف يمكن القول بأننا توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى بعض النتائج، منها : أن الشاعر أحمد شوقي مصري المولد والمنشأ والإقامة ومصري الأب والأم رغم أنه يضرب بأجداده إلى الأتراك والعرب واليونان والجركش، ولد سنة ١٨٦٨ وتوفي سنة ١٩٣٢. وكان شاعر الوطنية سجل فى شعره كثيرا من أحداث مصر، وشاعر القومية العربية تغنى بحب العرب وحزن لضعفها وصور آلامها وآمالها. فهو ابن مصر الذى لا يغيب عن هذا التوجيه الوطني والقومي.

يرتب الشاعر أفكاره فى داخل النص واضحة لاغموض فيها، وهى: أ) التجاوب والتعبير عن مشاعر الحزن الشديد تجاه دمشق ووصف فظاعة النكبة ، ب) تباين الموقف: الحزن والفخر بإنشاد فتيان دمشق لشعره، ج) تأثر عميق بالحدث الجلل الطارئ على دمشق،د) دور دمشق فى خدمة الإسلام وتقدم الحضارة فى العالم،ه) تعمق الإحساس والتفاعل ونفاذه إلى واقع دمشق،و) الحنكة وتجرمة القائد الفرنسي على مدينة دمشق، ز) موقفه القومي وحبه ونصحه، ح) معاني الحرية والاستقلال وأهميتها.

وتستمد هذه القصيدة أفكارها –أولا- من قوة الشعور القومي لدى الشاعر، و- ثانيا- تجربته بعد زيارة دمشق، زيارته قبل نكبة دمشق وبعدها، و- ثالثا- قوة إرادته ليستطيع الشعب السوري أن يعيش حرا عزيزا أبيا، و-رابعا- موهبته الشعرية.

نرى أن الشاعر فى هذه القصيدة: «نكبة دمشق» يحاول أن يعبر عن عاطفة أحسها وأن ينقل إلينا هذا من الأحوال حيث يقرض الشعر لأجله. لأن البحر له صلة بموضوع أدبي خاص أو بعاطفة معينة، فيلاحظ المتتبع لبحور الشعرالعربي قديمه وحديثه أن البحور: الطويل والبسيط والكامل والوافر والمديد تستخدم غالبا للقصائد الرصينة ذات الموضوعات الهامة والمواقف الجادة؛ بينما البحور: السريع والمنسرح والهزج والمتقارب والمتدارك وأضرابها يلجأ إليها عادة المعاني الخفيفة. إذا، فاستخدام الوافر هنا يتوافق مع بناء عاطفته وفورة انفعاله.

ومعلوم أن للقافية دورا مهما في تأكيد الحالة الشعورية لدى الشاعر ، فهي هنا تنتهي بحرف الروي «القاف» وهو حرفٌ قوي مجهور أو صوت شديد مجهور يؤكد النغمة المتوتّرة في القافية، ويشير إلى أنّ الشاعر يبدي حرصاً على رفع المستوى الإيقاعي عند نهايات الأبيات، فإن وقعحرف»القاف بدلالتهالإيحائيةجلبالشعورالحقيقيبالقل قوالأرق،فهو حرفأساسيفيلفظهقلق،وارتباطهببقيةالكلماتزاد منقيمتهالإيحائيةالدالةعلى السرعة والاضطراب،وخاصة أنهمنحروفالقلقلةالتيهيحركاتاضطرابية اهتزازيةداخلالفم. ولقد حرص الشاعر على الجهر به فى ضوء تلك الظاهرة المسماة «قلقلة» ذلك لأنه أراد إظهار كل ما فى هذا الصوت من قوة ليتفق مع طبيعة التجربة الشعرية التى تتحدث أساسا عن مصيبة وحرب يمكن القول بأنها كانت قوية وشديدة ومجهورة، ثم إنها تعطي موسيقى فخمة تتسق مع المعنى. أضف إلى ذلك أن الشاعرقد اختار أن يكون لرويه مطلقا ً لينسجم مع النغمة التصاعدية الحادّة السريعة في القافية.

ونلاحظ عناية الشاعر بموسيقى النص الداخلية فنجد هنا أنه مثلا يكرر حرف الراء في صدر البيت الأول والثاني، ويكررحرف القاف فى عروض البيت الثالث وضربه كما يكرره فى آخر البيت السادس والبيت الثالث عشر، وكذا فى عروض البيت الثاني والثلاثين وضربه وأما في البيت الثاني والعشرين فنجد أنه يكرّر كلمة (حقّ) فتستقرّ نغمة البيت في الأذن ، بالإضافة إلى التلوين بين حروف الهمس والجهر كالسين واللام ، والصاد والباء، والحاء والراء، الذي جعل موسيقا النص الداخلية جميلة مثل ما نجده فى (سلام صبا ، الحرية حمراء). ويضاف إلى ذلك النغمة التى يحدثها طباق السلب فى «اختلفت بلاد وبيان غير مختلف ونطق» ، وطباق الإيجاب فى «بين موت وحياة» ، والتى يحدثها جناس غير تام فى « يسقوا ويشقوا»، فيحدث الطباق والجناس صوتا متميزا. ومثل هذه الوسائل تجعل الإيقاعات الداخلية تَكمِلَةً لإيقاع الوزن

الإحساس، فنلاحظ فى النص أن الشاعر يعبر عن عاطفته القومية المتعاطفة، وهى عاطفة صادقة قوية عميقة، وأنه يتفاعل مخلصا مع قومه العرب فكأنه معهم فى النوائب والأحداث فيشاركهم فى كفاحهم ومعاناتهم، كأمثلة من ذلك قوله: ودمع لايكفكف، ولكن كلنا فى الهم شرق، رباع الخلد ويحك ما دهاها، فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا، كما نرى براعته فى استخدامه الألفاظ السهلة للتعبير عن أفكاره ومشاعره، فقد أكسب هذه الألفاظ طاقة شعرية دون الخروج عن الفصاحة، ونرى أنه فى هذه القصيدة لايخلو من استخدام الوسيلة الفنية التصويرية فى التعبير عن ما يختلج فى نفسه وما يدور فى المجتمع السوري. وقد صور ذلك الضيق النفسي أدق التصوير . فمن هذه الوسائل الفنية التصويرية: الكناية والاستعارة والتشبيه.

ويضاف إلى ذلك موسيقى شوقي جاءت مطابقة لموضوع القصيدة، قوية تمثل شعورا متفجعا وساخطا وناقما لما حل بدمشق من قتل وخراب، وهى اعتمدت على البحر الوافر، البحر الذى ينسجم مع القصائد الرصينة ذات الموضوعات الهامة والمواقف الجادة وقد ساعدها فى ذلك التكرارُ الصوتى القوي الشديد المجهور (القاف)فى آخر كل بيت من أبيات القصيدة، فيقال إن هذه القصيدة رائعة.

المراجع

الدسوقي، عمر، (١٩٥٠م) فى الأدب الحديث ، دم: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

هيكل،أحمد (١٩٨٠م) ،دراسات أدبية، ط ١،كورنيش النيل-القاهرة: دار المعارف.

حطيط، كاظم، (٢٠٠٣ م-١٤٢٣ هـ)أعلام ورواد فى الأدب العربي ، ج ٢، ط ١، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب.

مندور، محمد، (١٩٧٠م) فى أعلام الشعر العربي الحديث ، ط ١، بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.

معروف، نايفوالأسعد عمر (١٩٨٧م/١٤٠٧ه) ، علم العروض التطبيقي، ط ١، بيروت: دار النفائس.

قبش، أحمد (١٣٩١ ه-١٩٧١ م)، تاريخ الشعر العربي الحديث ، بيروت-لبنان: دار الجيل.

الرافعي، مصطفى صادق (١٩٧٤م)، تاريخ آداب العرب ، ج ١، ط ٤، بيروت-لبنان: دار الكتب العربي.

الشملي، منجي (١٤٠٥ ه-١٩٨٥م)،الفكر والأدب فى ضوء التنظير والنقد ، لبنان: دار الغرب الإسلامى.

ضيف،شوقى(١٩٦١م)، الأدب العربى المعاصر فى مصر ، ط ٥، كورنيش النيل-القاهرة: دار المعارف بمصر.